﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ [النساء: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ تَعَالَى فِيما تقدَّمَ صِفَةَ المحقّين في المُتاركةِ، المجدّينَ في إلقاءِ السَّلَمِ؛ نبَّهَ في هذهِ الآيَةِ علَى طَائفةٍ مُخادِعَةٍ لِلْمُؤْمِنينَ ولِقومِهم[1]، قال البقاعي: "ولَمَّا كانَ كأنَّه قيلَ: هل بَقِيَ مِنْ أقسامِ المنافقينَ شيءٌ؟ قيل: نعم"[2]، فذكرَ الآيَةَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾: الأمنُ هو سكونُ القلبِ فتطمئنُّ النَّفسُ، ويزولُ الخوفُ، وذهبَ بعضُ اللُّغويينَ إلى أنّهُ الطَّمأنينةُ عندَ الخوفِ، فالآمنُ هو الذي امتلأَ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنه، والأمانةُ ضدُّ الخيانةِ، والأمانةُ: هي الوديعةُ الّتي تُحفَظُ في حِرزٍ أوثقَ الحِفْظ، فتطمئنُّ النَّفسُ ويسكنُ القلبُ، ويأتي الأمنُ بمعنَى التَّصديقِ، وهو قريبٌ مِن معنى سُكُونِ القلبِ واطمئنانِ النَّفسِ، ومِنْهُ المُؤْمِنُ؛ لِأنَّ قلبَه يسكنُ لِمَا آمنَ به، ويطمئنُّ به[3]، وقولهُ تعالَى: ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ بمعنَى: تسكُنُ قلوبُهُم وتطمئنُّ نفوسُهم، فلَا تتعرَّضُوا لهم.

2) ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: الفاءُ والتَّاءُ والنُّونُ تدلُّ اشتقَاقَاتُهَا على إذابةِ شيءٍ بالنَّار لِتظهرَ جودتُهُ مِن رداءتِه، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، واستُعملَتِ الفِتنةُ في تمحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ بتعريضِها للشَّدائدِ كَمَا يُصْهَرُ الذَّهبُ أو الفضَّةُ؛ فيمتازُ خَبَثُهما عن جوهرِهما الخالصِ، فصارت الفتنةُ تَدُلُّ عَلَى المِحنةِ، وإيقاعِ الابتِلَاءِ أو التَّعْريض له بالاخْتِبَارِ[4]،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).

والفِتْنَةُ في قوله تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ بِمَعْنَى: الابْتِلَاءِ بِالْكُفْرِ، والرَّدِّ عَنِ الإيمانِ[1].

3) ﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾: العَيْنُ والزَّايُ واللَّامُ تدورُ تصريفَاتُهَا على مَعْنَى المفارقةِ والتَّنَحّي بالقلبِ أو بالبدنِ أو بِكِلَيْهِما، ومنه قولُهُم: انْعَزَلَ عَنِ النَّاسِ؛ إذَا تَنَحَّى عَنهُمْ جَانِبًا، والفعلُ (اعْتَزَلَ) يتعدّى بنفسِه، وبحرفِ الجرِّ (عَنْ)، فَيُقَالُ: اعتزلَ الشَّيءَ، واعتزلَ عَنْهُ، بمعنَى: بَعُدَ وَتَنَحَّى وتجنّبَ الشَّيءَ بالبدنِ أو بالقلبِ، و﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ في الآيَةِ الكريمَةِ هُو بِمَعْنَى الْمُفَارقةِ والتَّنَحّي بعيدًا[2].

4) ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾: الثَّاءُ والقافُ والفاءُ تدلُّ تصريفَاتُهَا على تمكّنٍ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشّيءِ وأحكمُها، ومَنْ تمكّنَ مِن شيءٍ أشدَّ التمَكُّنِ؛ فقد ثَقِفَهُ، وَيُطْلَقُ الثَّقَفُ على الظَفَرِ بالشَّيءِ والتَّمكّنِ مِنْهُ مغلوبًا بعد الطَّلَبِ[3]، وقولُهُ تعالَى: ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ معنَاهُ: ظَفِرْتُم بِهِم مَغْلُوبِين متمكّنًا مِنهم[4].

5) ﴿سُلۡطَٰنًا﴾: السِّينُ واللَّامُ والطَّاءُ تدورُ اشتقَاقَاتُهَا على معنَى التّمكّنِ مِن القوَّةِ والقهرِ؛ ولِهذا أُطلقَ السُّلطانُ على الحجَّةِ والبرهانِ، والسُّلطانُ: الحاكمُ ذو القدرةِ الظَّاهرةِ الواضحةِ، وهُو في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ بمعنى الحُجّة والبُرهانِ[5].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ستَجِدُونَ قريبًا قومًا آخَرين مِنَ المنافقينَ المخادعينَ، يُظهرونَ الإسلامَ لِرسولِ اللّهِ ﷺ وأصحابِه؛ لِيَطْمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم، ويظهرونَ الكفرَ لقومِهم؛ لِيطمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم ونسائِهم وذَرَارِيهم، كلَّما دَعَاهم قومُهم إلى الكفرِ رجعُوا إلَيْهِ، فإنْ لَمْ يَعْتَزِلْكم هؤلاءِ، ولم يَنْقَادُوا لكم، ولم يتركُوا التعرّضَ لكُم، فخذوهُم واقتلُوهم في أيِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/26، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1385.
(2) الراغب، المفردات، والفيومي، والمصباح المنير: (عزل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلط).

مكانٍ لَقيتموهم مِنَ الأرضِ، وأولئكَ الّذين تميّزوا عمّنْ عداهُم قَدْ جعلنا لكم حجةً ظاهرةً في قتالِهم وقتلِهم وأسرِهم أينَما لَقيتُمُوهم؛ بسببِ إقامتِهِمْ على كُفْرِهم، وخداعِهم المُؤْمِنين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ السِّينِ فِي ﴿سَتَجِدُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

بِشَارَةُ أَهْلِ الإِيمَانِ بِقُرْبِ ظَفَرِهِمْ بِالْمُخَادِعِينَ

لمّا كانَ الوِجدانُ هو تحصّلُ شيءٍ ذي بالٍ، والظَفَرُ بِهِ في حَوزةٍ؛ ناسبَ أنْ يُعبِّر به عن وِجدانِ هؤلاءِ القومِ مِنَ المنافقين الّذين تميّزوا من غيرِهم مِنَ الكفّارِ والمنافقين بشدّةِ مكرِهم وخَديعتِهم وجُبنِهم؛ لِخوفِهم على أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم؛ فكأنّه قال: سَتَظْفَرُونَ قريبًا بهؤلاءِ القومِ الذين شأنُهم أشدُّ من شأنِ سائرِ المُنَافِقين في الخديعةِ وفي الجُبنِ، وفي التَّعبير بِشَارةٌ لِلْمُؤْمِنين بِقُربِ العُثورِ عَلَيْهِم بِوَعدٍ لا شكَّ فيهِ بِدِلَالَةِ حرف التَّنفيسِ الدالِّ على المستقبلِ القريبِ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمَوْصُوفِ وَإِقَامَةِ الصِّفَةِ مُقَامَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

الْمُنَافِقُونَ وَإِنْ كَانُوا فِئَةً وَاحِدَةً فِي أَصْلِ النِّفَاقِ، لَكِنّ صِفَاتِهِمْ مُتَنَوِّعَةٌ

أصلُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾: (سَتَجِدُونَ قَوْمًا آخرين)، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه؛ لِأنَّ هذه الفئةَ لمّا كانت تعيشُ بالتَّخفّي والخِدَاعِ؛ ناسبَ أنْ يُحذفَ المَوْصُوفُ الدالُّ على الذّاتِ وتُذْكَرَ الصِّفةُ؛ لِلإشعارِ بتَخَفِّيهم، وأكَّدَ هذا المعنى مجيءُ الصِّفةِ نكرةً دالّةً على الشّيوعِ، وقد أُتْبِعَتْ بِذِكْرِ أوصافِهم في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لِتَخْصِيصِهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/27 - 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.

وفي التَّعبير بالصِّفَةِ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنّ المُنَافِقِينَ وَإن كانُوا فئةً واحدةً في جِنْسِ نِفَاقهم، لكنّ صِفَاتِهم متنوّعةٌ، ومَرَاتبَهم في النِّفاقِ كثيرةٌ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِرَادَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

لَيْسَ لِلْمُنَافِقِينَ هَمٌّ إِلَّا الدُّنْيَا

عُبِّر بفعل الإرادَةِ في قوله تعالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ لِمَا في الفعلِ من مَعْنَى المقابلةِ بينَ ما يُريدُه المُؤْمِنونَ ومَا يُرِيدُه المنافِقُون، فقد ذَكَرَ اللّٰه تعالَى أنّ المؤمنين يُرِيدُونَ هدايَةَ المُنَافِقين، ولَامَهم عَلَى هَذَا، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وفي هذه الآيَةِ ذَكَرَ ﷻ أنَّ هَمّ المُنَافِقين هُو الدُّنْيَا، فَهُمْ يُرِيدُونَ أنْ يَأْمَنُوا المُؤْمِنين علَى أنفسِهم ومالِهم، ويأمَنُوا قَومَهم كذلك، وشتّانَ بينَ الْإِرَادَتَيْنِ.

كما أنّ التَّعبيرَ بالإرَادةِ مشْعِرٌ بعدَمِ تحقُّقِ حصولِهم على مرادِهِمْ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ أَمْنِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْنِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

تَفَاوُتُ الْمُنَافِقِينَ فِي دَرَكَاتِ نِفَاقِهِمْ وخِدَاعِهِمْ

وردَ الفِعْلَانِ ﴿يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ﴾ علَى صُورَةٍ واحِدَةٍ ملائمةٍ لِلْوَاقِعِ، فلَفْظُ الفعلَيْنِ متماثِلٌ، ولكنَّ الْمَقْصُودَ بِهِمَا مختلِفٌ، فذهابُهم إلى المُؤْمِنين يباينُ ذَهابَهم إلى قَوْمِهم، والأمانُ الذي يُريدونَه مِنَ المُؤْمِنين غيرُ الأمانِ الذي يريدونَه من قومِهم، ودلَّ اقترانُ الفِعْلَيْنِ مِنْ غيرِ فاصلٍ بينَهُمَا على أنَّ أمانَهم لا يتِمُّ إلَّا بتحصيلِ الأمَانَيْنِ معًا.

وقُدِّمَ قولُهُ: ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾ عَلَى ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لأنّه لمّا كانت هذه الفئةُ مِنَ المُنَافِقين أشدَّ خوفًا مِنَ المُؤْمِنين وأكثرَ مُخادعةً لَهُم مِن سَائرِ المنافِقين؛ ناسبَ أنْ يُقدّمَ الأهمُّ عندَهم، والأعظمُ في

نفوسِهم؛ وهو أنْ يأمَنُوا المُؤْمِنين، فإذا أَمِنُوا المؤمنينَ؛ سهُلَ عليهم أنْ يأمَنُوا قومَهم؛ لِموافقَتِهِم لَهُم في الكُفرِ، ولأنَّ عادةَ الْقَوْمِ عدَمُ مُحَارَبَةِ مَن كانَ مِنْهُم.

وقُدِّمَ ضميرُ الخطَابِ لِلْمُؤْمِنين على ضميرِ الْغَائِبِ لِلْمُنَافِقِين علَى نَسَقِ تقديمِه في السِّياقِ نفسِه؛ فقولُه تعالى: ﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ نظيرُ قَوْلِهِ تعالَى قبلُ: ﴿أَن يُقَتِلُوكُمْ أَوْ يُقَتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾[1]، في أنّ وجهَ التّقديمِ هُوَ أنَّ خوفَ المنافقين مِنَ المُؤْمِنين أكثرُ من خوفِهم مِن قَومِهم، وحِرْصَهم على أنْ يأمَنُوا المؤمنين أشدُّ مِن حرصِهم على أنْ يأمَنُوا قومَهم، والسّياقُ كلُّه يَجْرِي على هذا النَّسقِ مِنَ التّقديم، كما في قَوْلِهِ: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾، و﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، ولكلّ تقديمٍ خَصوصيّتُهُ ومناسبتُه كما تبيّنَ ذلكَ في مَوْضِعِهِ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿كُلَّ مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَآ﴾:

أفادت ﴿كُلَّ مَا﴾ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَآ﴾ عمومَ الوقتِ وتكرارِ الفعل؛ إذْ لَا يأتِي بعدَها إلَّا فعلٌ، وَيدلُّ عمومُ الوقتِ وما يَقْتَضيه مِنَ التَّكرارِ على أنّ الرَّدَّ إلى الفِتْنَةِ كَان يَتكرَّرُ مِنْ غيرِ انقطاعٍ، وَيتكرّر فعلُ الْإِرْكَاسِ فيها، فَفي مَجِيءِ ﴿كُلَّ مَا﴾ تَصْوِيرٌ لِحَالِهِم الْمُتَكَرِّرةِ وَقْتًا فوقتًا بينَ الفِتْنَةِ والانْغِمَاسِ فيهَا.

تَـكْـرَارُ الْـوُقُـوعِ فِي الْفِتْنَةِ يُورِثُ الِانْـغِـمَـاسَ فِيهَا؛ فَلَا يَكَادُ يُخْرَجُ مِنْهَا

ولمّا كانَ الرَّدُّ هو رجوعُ الشَّيءِ إلى ما كانَ عليه، والْإِرْكَاسُ هو ردّ الشّيءِ بقَلْبِه عَلَى رَأْسِه، فكانَ فيه مَعْنَى الانْغِمَاسِ؛ ناسبَ أنْ يكونَ الرَّدُّ مَوْصُولًا بالحَرْفِ الدالِّ علَى انْتِهَاءِ الغايةِ (إلى) في قولِهِ تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَآ﴾؛ لإفادةِ انتهاءِ ردِّهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/109.

إلى الفتنةِ، وأنْ يكونَ الْإِرْكَاسُ مُقْتَرِنًا بـ (في) الدَّالّةِ على مَعْنَى الظَّرفيَّة؛ لإفادةِ ظرفيَّةِ الْفِتْنَةِ للانغماسِ فيها.

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي بَيَانِ قُبْحِ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ استعارَةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذْ شُبِّهَ حالُ رَدِّهم إلى الْكُفْرِ أو تَصْييرِهم إلى النَّار بعدَ أنْ كان مصيرُهم إلى الجنَّةِ باعتبارِ حَالِهِمُ الأصليَّةِ[1] بِتَحوّلِ الطَّعامِ إلى الرَّجيعِ؛ فيكونُ مِنْ تصويرِ المعقولِ - وهو التحوُّلُ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ - في صورةِ المحسوسِ الّذي هو تحوّلُ الطَّعامِ الطَّيِّبِ إلى الرَّجيعِ؛ ونُكْتَتُهَا: الإشارةُ إلى تأكيدِ ظهورِ تحوّلِهم الشَّنيعِ، وفيها: زيادةُ تقبيحِ حالِهم، وبيانُ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفرِ والباطلِ وعَدَاوَةِ الْمُسلِمينَ، وأنَّهُ يبعُدُ رجوعُهُمْ بعد هذه الحالِ إلى الحقِّ؛ إذْ مَن وَقَعَ في شَيءٍ مَنكُوسًا يَتَعَذَّرُ خُرُوجُهُ مِنْهُ عادةً، وفي هذه الاسْتِعَارَةِ أيضًا: مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ قبحِ حالِ هذا الصِّنفِ مِنَ المنافقين وخُبثِهم؛ لِظهورِ غدرِهم وخداعِهم، واقترنتِ الاستعارةُ هُنَا بِـ ﴿كُلَّ مَا﴾؛ لِيفيدَ استمرارَ إركاسِهم في فتنةِ الكُفرِ.

وقد ذكرَ اللّٰهُ تعالَى الطَّائفةَ الأولى من المنافقين فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾، فلم يصرّح بموضعِ الإركاسِ، ولمّا كانت هذه الطَّائفةُ أشدَّ من الّتي قبلَها نفاقًا لمكرِها وخداعِها صُرِّحَ بِإركاسِهم هُنَا، فقال سُبحانَهُ: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في الفتنةِ، والمعنى: قُلِبوا فيها أقبحَ قلْبٍ وأشنَعَه، وكانوا فيها شَرًّا من كلِّ عدوٍّ شرّيرٍ[2].

وبُنِيَ الفعْلُ ﴿أُرْكِسُواْ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لِلإبهامِ عَلَيْهِم، فلا يَعْلَمُون مَنْ يُرْكِسُهم ويَغْمِسُهم في الكُفرِ؛ تهويلًا وتخويفًا، بخلافِ قولِهِ تعالَى قبلُ: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾، فقد نُصَّ على الفاعلِ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/254.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/214.

وهو اللهُ ﷻ؛ لأنّه رُتِّبَ عليهِ لَوْمُ المؤمنين على انْقِسَامِهم طَائِفَتَيْنِ في أمرِ المنافقينَ ولَومِهم على إرَادَتِهم هدايةَ الْمُنَافِقِين، فلأجلِ أن يَقْطَعُوا الأملَ في الأمرِ؛ نُسِبَ إركاسُهم إلى اللهِ ﷻ على الأصلِ في أنَّ اللهَ تعالَى هو الّذي يَهْدِي ويُضِلُّ.

بَدِيعُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ **مَعَ الْآيَةِ قَبْلَهَا:**

تَفْصِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِبَيَانِ أَحْوَالِهَا؛ لِئَلَّا يَبْقَى لَبْسٌ فِيهَا

جاءَتْ هذه الآيةِ مُنَاسبةً لِمَا قبلَها في اللَّفْظِ والمَعْنَى، وقد تضمَّنتَا مقابلَةَ ثلاثةِ معانٍ بثلاثةٍ، وهي:

أوَّلًا: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، فإنَّه مقابلٌ لِقَوْلِهِ قبلُ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾.

ثانيًا: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾، فإنَّهُ يُقابلُ قولَهُ: ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾؛ وذلك لأنَّ قولهُ: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾ كان في حيِّزِ النَّفْيِ في قولهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، والتَّقدير: ولَم يُلقُوا إليكم السَّلَمَ[1].

ثالثًا: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾، فهو مقابلٌ لِقَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ووجهُ المقابَلَةِ ههنا كالذي قبلَهُ؛ لأنَّ فعلَ الكفِّ في حيِّزِ النَّفْيِ، والمعنى: ولم يكفُّوا أيديَهُمْ؛ وذلك بقتالِكُم.

فهذه ثلاثةُ معانٍ تقابلُ ثلاثةَ معانٍ؛ وهي في الآيةِ الأُولَى: الاعتزالُ، وعدمُ القتَالِ وإلقاءُ السّلم، فبهذه الأجزاء الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: عدمُ التعرّضِ لهم بالأخذِ والقتلِ، كما يشيرُ إليهِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وفي الآية الأخرَى: عدمُ الاعْتِزَالِ، وعدمُ إلقاء السّلم، وعدمُ الكفِّ عَنِ القتال، فبهذه الأجزاءِ الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: الأخذُ والقتلُ المصرّحُ به بِقَوْلِهِ سبحانه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾[2]، فكانَ ما تضمَّنَهُ الجزاءُ في الآيتينِ الكريمَتَيْنِ معنًى رابعًا تمَّت به المقابَلَةُ.

(1) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 117.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/107.

سِرُّ تَغَايُرِ أَلْفَاظِ الْمُقَابَلَةِ فِي الْآيَتَيْنِ:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لِأَحْوَالِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ

اختلفَ التَّعبيرُ في الكلامِ على الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُنَافقينَ نَظَرًا إِلَى الحَالِ الْمُتَرَقَّبَةِ مِنْ كُلِّ فَرِيقٍ؛ وهُوَ افتِنَانٌ بَدِيعٌ لَم يَبقَ مَعَهُ اختِلَافٌ في الحُكمِ، ولَكِن صُرِّحَ بِاختِلَافِ الحَالَيْنِ، وبِوَصفِ مَا في ضَمِيرِ الفَرِيقَيْنِ، فقالَ عندَ الكلامِ على الصِّنفِ الأوَّلِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، فجاءتِ الصِّيغُ في سياقِ إيجابِ الاعتزالِ، وإيجابِ إلقاءِ السَّلَمِ، ونفيِ المقاتلةِ؛ إذ كانوا مُحِقِّينَ في ذلك مُعْتَقِدينَ له[1]، فكأنّ الأصلَ اعتزالُهم، ونفيُ قتالِهم، وإلقاءُ السَّلَمِ؛ لِمناسبةِ ما ذُكِرَ مِنَ العهدِ أو كراهةِ قتالِ المؤمنينَ، فإنْ فَعَلُوا هذه كلَّهَا؛ فالجزاءُ بطريقةِ النَّفيِ، وهو ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، بالنَّظرِ إلى أنَّ الغالبَ أنْ يَفْعَلُوا، ولمّا جاءَ سياقُ ذِكْرِ الْمُنَافِقِين الّذين يُترقَّبُ خداعُهم وغَدْرُهم؛ جاءتِ الصِّيغُ مختلفةً، فكانتْ أشدَّ وأحزمَ؛ لأنَّهم كلّما رُدّوا إلى الفتنةِ انْغَمَسُوا فيها، إذ وردتْ على طريقةِ السَّلبِ والتَّجريدِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ فَلْيَحْذَرَ المؤمنُونَ خِداعَهم ومَكْرَهم؛ شَرَطَ نفيَ الاعتزالِ وَإلقاءِ السَّلم وَكفِّ الأيدي، وجعلَ الجزاءَ إنْ فُقِدَ شرطٌ من هذهِ الشُّروطِ أخذَهم بقوّةٍ وقتلَهم، وجاءَ ذلكَ بطريقِ الإثباتِ، فقال تعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾، بالنَّظرِ إلى أنَّ الغالبَ في الْمُخَادِعِين أنْ يَمْكُرُوا ويَتَخَلّوا عَمّا ذُكِرَ؛ فتأمّلْ فصاحةَ الكلامِ وبلاغَتَهُ؛ إذْ ناسبَ حالَ كلِّ طائفةٍ ألفاظُها وصِيَغُها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ نَفْيِ إِلْقَاءِ السَّلَمِ عَلَى نَفْيِ كَفِّ الْأَيْدِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

لمّا كانَ شعارُ هذهِ الطَّائفةِ مِنَ المنافقينَ هو الخِداعُ والمَكْرُ؛ ناسبَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

أنْ يُقدَّمَ ما يدلُّ على ظُهُورِ انْقِيَادِهم على الكفِّ عنِ القتالِ، وذِكْرُ انقيادِهِمْ أولَى بَعْدَ اعْتِزَالِهم؛ ليُؤمَنَ مَكْرُهُم وخداعُهم، بخلاف الآيةِ المتقدِّمَةِ في سياقِ ذِكْرِ الّذين يَصِلُونَ إلى قومٍ بينَهم وبينَ المؤمنين عهدٌ، أو عن الّذين يكرهونَ قتالَ المؤمنين؛ فقد قُدِّمَ نفي القتالِ على إلقاء السَّلَمِ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ لأنَّ الأهمَّ فيهَا هُوَ تركُ القتالِ المُستتبِعِ لزومًا لِلاعْتِزَالِ والتّنحّي عنِ المُؤْمِنِينَ، وأمّا إلْقَاءُ السَّلَمِ؛ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ عنهم؛ لِمناسبةِ العَهْدِ أو كراهةِ قتالِهِمُ المُؤْمِنين.

دِقَّةُ تَصَرُّفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي التَّرَاكِيبِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

نُكْتَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ كنايةٌ عَن تَرْكِ الْقِتَالِ[1] بِذِكْرِ لازمِه؛ لِيَنْتَقِلَ الذّهنُ فيهِ مِن كفِّ اليَدِ إلى تَرْكِ السِّلاحِ، وَمِنْ تَرْكِ السّلاحِ إلى تركِ القتالِ، كما أنّ كفَّ الأيدي أعمُّ من ترك السّلاحِ، فالأذيّةُ باليَدِ قد تكونُ بغيرِ سلاحٍ؛ فأفادتْ هذهِ الكنايةُ كلَّ هذه المعانِي.

تَأْكِيدُ التَّحْذِيرِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُخَادِعِينَ

وأوثِرَ التَّعْبِيرُ بالكِنَايةِ مع هذا الصِّنفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ المخادعين؛ مبالغةً في التَّحذيرِ منهم، لِشِدّةِ مَكرِهم وغَدْرِهم.

دِلَالَةُ ﴿حَيۡثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾:

لفظةُ ﴿حَيۡثُ﴾ تَقَعُ على الجهاتِ السِّتِّ، وَعلى كلِّ مَكانٍ، فاستعمالُهَا في قَوْلِه تعَالى: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ تفيدُ الإبهامَ في الأمكنةِ؛ لِوقوعِها عليها جَميعًا[2]، وَأُزيلَ هذا الإبهامُ بالجملةِ بعدَهَا: ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾، والمَعْنَى: خُذوهُمْ بِقوَّةٍ واقْتُلُوهُم في أيِّ مكانٍ تَثقَفُونَهُم فيهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى الْوَعْدِ بِتَيْسِيرِ التَّمْكِينِ مِنْهُمْ[3].

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَيْسِيرِ تَمْكِينِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

(1) الكلام ههنا عَنْ خصوصِ ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، وإلاَّ فهذا التّركيبُ واردٌ في حيّزِ النَّفْيِ.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/360.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ (ثَقِفَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

مِنْ أَصْنَافِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَتَعَذَّرُ كَشْفُ حَقِيقَتِهِ

لمّا كانَ هذا النَّوعُ مِنَ المنافقينَ قد يَتَفَلّتُ وَيَصعُبُ إيجادُهُ، فمَا هُم بِمُخلِصي الوُدِّ لِلْمُؤْمِنين ولا لِقومِهم؛ لِشدَّةِ مكرِهم وخداعِهم؛ كانتْ كلمةُ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هي المناسبةُ لِلْمَقَامِ؛ لِمَا في الكلمةِ مِنْ معنى الطَّلَبِ وَالظَّفَرِ بهم، والتَّمكُّنِ منهم مَغلوبينَ مَقهُورِينَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

لَوْلَا كَشْفُ اللهِ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ بِبَيَانِ أَوْصَافِهِمْ؛ لَالْتَبَسَ أَمْرُهُمْ غَايَةَ الالْتِبَاسِ

جيءَ باسم الإشارةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لتمييزِ المَوْصُوفِين أكملَ تمييزٍ[1]؛ لحاجةِ المقامِ إليهِ؛ لأنّهم كانوا يُظْهِرُون لكلٍّ مِنَ المُؤْمِنِينَ والكافرين أنّهم مِنْهُمْ.

وعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ الّذي للبُعْدِ؛ لِصعوبةِ التَّعرُّفِ عليهم، لَولا أنْ كشفَهم اللّه تعالَى ببيانِ أوصافِهم.

وأشعرتْ ميمُ الجمعِ في ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ﴾ بظُهورِ الحجّةِ على هذا الصِّنفِ مِنَ المُنَافِقِينَ المخادعينَ لجميعِ المؤمنينَ بِمَا ذُكرَ مِنْ أوصافِهم.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

انْكِشَافُ أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ يَجْعَلُ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِمَنْأًى عَنْ شُبْهَةِ الِاعْتِدَاءِ فِي قِتَالِهِمْ

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (علَى) في قوله تعالَى: ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لإفادةِ تمكُّنِ البُرهانِ القاهرِ الواضحِ على نِفاقِهم، فاسْتَوْعَبَهُم مِنْ علُوٍّ، وناسبَه ذكرُ ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لِمَا تدلُّ عليه كلمةُ سُلْطَانٍ من مَعْنَى القَهرِ والحُجَّةِ والبُرهانِ، (فَلَا يُخشَى أَنْ يُنسَبَ المُسلِمُونَ في قِتَالِهم إِلَى اعْتِدَاءٍ)[2]؛ لِوضوحِ الحُجَّةِ على نِفاقِهِمْ.

وفي وَصْفِ السُّلطانِ بالمُبين مجازٌ عقليٌّ؛ ونكتتُهُ: المبالَغَةُ في وَصْفِ الحُجَّةِ عليهِم بالقُوّةِ والظُّهورِ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»